صور من القاهرة المجهولة

على تلال زينهم

بقلم الأستاذ م . محمد عبد الكريم

يافتاح ياعليم . . .

ولم يطل تساؤلى عن الزائر حتى ظهر رضوان من خلف الباب فذكرت أننا على موعد للقيام بجولة على تلال زينهم .

والأستاذ رضوان صديق قديم تحابينا فى الله وفى خدمة الناس . وقد كرس كل جهوده للخير . فهو يدير ملجأ العميان بالزيتون ويساهم فى كل عمل إصلاحى . فتارة تراه بحلة الرواد يعاون إخوانه فى عملهم المجيد . وطورا تجده مع لفيف من أصحابه يجوبون القرى لخدمة الفلاحين وإرشاد أبناء الريف .

وسار بنا الترام حتى بلغ المذبح ، ثم انعطف حول مقابر لاتينية لا يفصلها عن المساكن غير عرض الطريق . ولسنا ندرى إلى متى تظل هذه المقابر تستقبل الأموات وقد أحاط بها الأحياء من كل جانب .

الذهب من القمامة :

وبدأنا السير فى شارع حسن الأنور فى منطقة فقيرة مهملة فلت مصلحة التنظيم عنها يد العناية ، مكتفية بما أغدقته على لوحاتها من أسماء رنانة طنانة : هذا شارع دار الإمارة ، وذاك شارع الأمير سيف ، وسرنا حتى إذا بلغنا التل رأينا أنفسنا فى حى صناعى له أهميته .

هذه مدابغ كبيرة يجاورها معمل تجارب الجلود التابع لوزارة التجارة ، وتلك مخازن شركة الأمعاء — وهى شركة اختصت بتجارة الأمعاء تأتى بها من مذابح القطر وتصدرها إلى الخارج بعد أن تجففها — وذاك مخزن كبير للخرق البالية يجمعها من المستوقدات ومن شوارع العاصمة يضغطها فى بالات كبيرة ثم يصدرها إلى الخارج لتستخدم فى صناعة الورق ، يقابله موقد كبير يعنى بحرق العظام التى يحصل عليها من القمامة فيحولها إلى فحم حيوانى تشتريه شركة السكر لعملية التكرير .

ويجاور هذه المنشآت موقد مصلحة التنظيم الميكانيكى ، وقد سبق أن أشرنا إليه فى مقالنا عن المستوقد ، وطالبنا أولى الشأن بتعميم المواقد الميكانيكية فى أطراف المدينة حتى تتخلص العاصمة من أدران المستوقدات القديمة التى تشوه جمالها وتضر بصحة فريق كبير من سكانها .

وقد آلمنى أن يكون أكثر المتاجر والمصانع الهامة بالتل ملكا للأجانب ، وهكذا نرى الأجانب يستغلون كل شيء عندنا حتى القمامة عرفوا كيف يستفيدون منها بل ويحصلون من تجارتها على الذهب الوفير .

فى حى المدابغ :

وارتقينا ربوة عالية ، فاذا بنا نشرف على واد فسيح اجتمع له الماء والهواء وسعة الصحراء ولكنه ماء آسن راكد ، وهواء فاسد خانق ، وصحراء مترية ليس فيها سوى الركام والأنقاض .

هذا هو حى المدابغ وإن شئت فقل هو حى الوباء ومصدر الأمراض والادواء . وما ظنك بمكان لا ترى فيه إلا كل قبيح ولا تشم إلا الكريه ؟ سرنا فيه بين أوحال وقنوات تجمع فيها ماء المدابغ المتخلف من تنظيف الجلود وظل بها حتى زاد فسادا وملئ وباء .

وسارع الأهلون إلينا يشكون الحكومة قبل أن نشكوهم إليها ، يقولون إنهم بعثوا بالمظالم والالتماسات تارة بالبريد وأطوارا بالبرق ونادوا تفتيش صحة القاهرة ومصلحتى المجارى والتنظيم ولكن ذهب جهدهم أدراج الرياح فاستكانوا ورضوا بما حاق بهم من أذى وبلاء .

على أن هذه المصيبة على فداحتها — مصيبة ترك المجارى مكشوفة يأسن بها الماء — مفيدة لشركة السماد التى يسهل عليها جمع الطين المختلط بالمواد العضوية لتبيعه سمادا قيما بثمن كبير .

وانتقلنا الى مدابغ الحور — والحور جلود الماعز وما شابهها — فكادت المياه المتخلفة أمامها تعوقنا عن دخولها لولا تضحيتنا بنظافة أحذيتنا وجواربنا فى سبيل بلوغ غايتنا .

دخلنا المدبغة فهالنا ما رأينا بها : صبية ورجال عرايا لا تسترهم إلا خرق صغيرة ، يعملون وقد اختلط عرقهم بنفايات الجلود ودمائها ، غائصين فى الماء الآسن إلى سيقانهم .

وتقدم إلينا صاحب المدبغة ، فسألته عن حال العمال فقال : "معدن .. أحسن منا نحن أصحاب المدابغ . أجور عالية وصحة كاملة وساعات شغل طبق نص القانون ، انظر إلى الأجزاخانة التى عملناها تنفيذا لأمر مصلحة العمل" وأشار إلى صندوق صغير به بعض زجاجات صغيرة وقليل من القطن .

حالة عمال المدابغ :

على أن ما شاهدته وما سمعته من العمال ومن غير العمال بعد أن سمعت أصحاب العمل ، دلنى على حقائق مؤلمة لا أرى بدا من الإفصاح عنها عسى أن يعنى أولو الشأن بالأمر :

يشتغل عمال المدابغ فى الوضع الذى وصفته عشر ساعات فى اليوم ، وأكثرهم لا يتقاضى أجرا ثابتا ؛ بل يعملون بما يسمونه " الطريحة " فترى العامل كالآلة يعمل دائبا مستميتا

لإنجاز أقصى ما يمكن ، وهو رغم ذلك لا يكاد يحصل على كفافه إذ لا يتجاوز أجر الرجل فى المتوسط ستة قروش فى اليوم والغلام قرشا واحدا .

على أن أمر الأجور ليس ذا بال إذا قيس بما يتعرض له العمال من ضرر يذهب بصحتهم ويعود عليهم بأخطر الأمراض . فمساد الهواء فى داخل المدبغة وفى خارجها والبلل والماء الذى يغرقون فيه بأقدامهم وسيقانهم طول يومهم يسبب لأكثرهم مرض السل والروماتيزم.

وقد سألت البعض كيف يقوى العمال على احتمال الجو الخانق الذى لم تطقه لحظات ، فقال " البركة فى الشاى والنشادر " إذ كلما أغمى على أحدهم عمل على إفاقته بالنشادر وأعطى قليلا من الشاى لينهض و يعود إلى مغالبة الموت ومواصلة الكفاح فى سبيل العيش .

على أن هناك فريقا من العمال يعملون فى ما هو أبشع مما رأينا وأشنع . إذ يقتضيهم عملهم أن ينزلوا عراة فى أحواض الجير و يمكثوا فيها طول يومهم . ولسنا ندرى كيف يقوى هؤلاء المساكين على احتمال نار الجير الكاوية ؟

وقد درج أصحاب المدابغ ، كما يفعل كل أصحاب الأعمال فى بلادنا ، على مكافأة من يعجزه المرض عن مواصلة العمل بالفصل وقطع العيش ، فهم لا يعرفون شيئا عن المكافآت والتعويضات ، والعمال فى نظرهم كالسائمة تطعم لتعمل فإن أدركها العجز وأقعدها الوهن نبذت أو استحقت الاعدام .

لسنا ننكر أن عندنا قانونا للعمل . ولكن أنى لهذا العاجز الطريد أن يعرف القانون ، وأن يقاضى وأن يصمد فى المحاكم أمام خصم موسر عنيد ؟

دعارة سرية :

وتركنا المدابغ وفى نفوسنا غصة ، وتوغلنا فى الجبل فاذا بنا بين عدد غير قليل من النسوة والفتيات وقد حمل كل منهن وعاء من الصفيح .

ضحك رائدنا ، فقلت ما يضحكك ؟ قال " بنات هلس " .

ومضى الرجل يكشف لى عن أمرهن فقال إن تل زينهم معروف من القدم بأنه مقر للدعارة السرية يقصده النسوة الساقطات ليزاولن مهنتهن الشائنة بعيدات عن كل رقابة . قلت ، ولكنى لا أرى لهن بيوتا ولا أكواخا . قال : هنا وعلى التراب بين وهاد التل وأنجاده ترتكب الفحشاء !

ودنت منا احداهن وكأنما تستطلع سر مجيئنا إلى التل ، فرأيت فى ثيابها الرثة ووجهها الشاحب وجسمها الناحل ما ينبئ عما هى فيه من بؤس وفاقة . ولا نرانا فى حاجة إلى الاشارة إلى خطر الدعارة السرية وخاصة إذا جاورت منطقة مأهولة بالعمال كحى المدابغ . ورجال

الحفظ مسئولون عن بقاء هؤلاء الساقطات بالجبل ودسوخ أقدامهن فيه ، وحرام أن نضيف إلى بؤس عمال المدابغ وسوء صحتهم تقريب الرذيلة اليهم وتعريضهم للأمراض السرية ، وكفى ما يتعرضون له من أمراض صدرية من جراء عملهم فى هذا الجو المشبع بالسموم .

وكان التعب قد بلغ منا مبلغا كبيرا من أثر المشى الكثير ولم تعد رءوسنا تقوى على احتمال روائح التل الخانقة فانتقلنا إلى حى الطبى .

الطبى ومحلة الرواد :

قصدنا إلى حى الطبى مارين بدرب الفضل . ودرب الفضل يقع بمنطقة مبنية على تل مرتفع من الأتربة ، و بلغنا محلة الرواد . ولكنا لم نتمكن من زيارتها ، إذ وجدنا أبوابها موصدة . والرواد كما نعلم فئة ممتازة من الشباب المثقف تعمل بنشاط فى مضمار الاصلاح الاجتماعى ، وهى توجه اهتمامها بصفة خاصة إلى الطبقات الفقيرة وقد اختاروا حى الطبى ليقيموا فيه " المحلة " نواة عملهم .

وقد مضى على محلة الرواد بحى الطبى تسع سنوات خدمت خلالها أبناء الحى أجل الخدمات . فهى تقبل الأولاد بين الثانية عشرة والعشرين . تجمعهم فى المساء بعد انتهاء عملهم لتوجدهم فى بيئة نقية من أعضائها . وهناك يتصل الرواد بالأولاد اتصالا أخويا ، يعلمونهم ويثقفونهم ويهذبون نفوسهم بالقول الصالح والموعظة الحسنة ، ولا مراء فى أن حياكى زينهم والطبى هو أحوج الأحياء إلى العناية بأبنائه و إزالة أثر البيئة الفاسدة منه بإيجاد وسط راق من الشباب المثقف بين الناشئين فيه .

سبل الإصلاح :

إن العناية بالصحة ورعاية العمال ومقاومة الدعارة السرية والاهتمام بتنظيم الأحياء ، كل أولئك منوط بمصالح الحكومة . فإذا نحن أبرزنا ما شهدناه بتلال زينهم من نقص وما رأيناه فيها من مفاسد فإنما نرمى إلى غاية واحدة هى توجيه أنظار أولى الأمر والقائمين بالإصلاح من ذوى الحل والعقد إلى حالة حى يضم عشرات الألوف من الأهلين ، وسبل الاصلاح فى رأيى هى :

(أولا) أن يتم تفتيش صحة القاهرة ومصلحة المجارى والتنظيم بتفتيش المنطقة ، فتردم القنوات المكشوفة التى توصل المدابغ بالمجارى العامة ، و يمكن للحكومة أن تقوم بهذا العمل على نفقتها مادامت مصلحة الناس وصحتهم تقتضيان ذلك ، وإذا كانت لشركة السماد ، وهى أولى الشركات المنتفعة بالتلال ، رغبة فى الاستفادة بالماء المتخلف من العمل بالمدابغ فعليها أن تستقبل هذا الماء فى أنابيب مغطاة وأن تصرفه خلف الجبل بعيدا عن المناطق المسكونة

(ثانيا) أن يكون لحى المدابغ نصيب فى الوحدات الصحية التى تشرع وزارة الصحة فى إنشائها بالعاصمة ، فليس لدينا طبقة هى أحوج إلى المستوصف والحمام ومغسل الثياب من عمال المدابغ .

(ثالثا) أن تكون رقابة موظفى مصلحة العمل على أصحاب المدابغ وغيرهم أشد أثرا وأقوى فعلا وأن يلزم صاحب كل مدبغة بعمل تأمين إجماعى لعمال مدبغته .

(رابعا) أن يهتم البوليس بأمر الدعارة السرية بالتل فيطارد المومسة الساقطات ويقدمهن الى القضاء .

(خامسا) أن تدخل مصلحة التنظيم فى لائحتها نصا يحرم إعطاء ترخيص بالبناء ما لم تكن الأرض التى سيقام بها هذا البناء ممهدة و بمستوى الطريق المجاور . وأن يتحقق مهندسو التنظيم من تنفيذ ذلك قبل تسليم الترخيص لطالبه ، حتى لا تقام المنازل على الأتربة العالية والركام المرتفعة مما يشوه منظر الحى و يتناقض مع غايات التنظيم فيه .

وقبل أن نختم هذا المقال نذكر أن مسألة تلال زينهم كانت ولا زالت موضوع دراسة الكثيرين من المهوانين لما فى استغلال أتربتها من ربح وفير .

وقد أثيرت هذه المسألة بصفة جدية منذ عام ونصف تقريبا حين حضر إلى هذه الديار نجل الأميرال هورتى الوصى على عرش المجر وعرض الرغبة فى تكوين شركة تتولى إزالة التلال لاستغلال السماد و بيع الأرض بعد إخلائها . ولسنا نعلم سر إهمال هذا المشروع النافع ، ولكن يظهر أن اندلاع نار الحرب هو السبب . على أننا نعتقد أن مشروعا كهذا سوف يبعث ثانية فى الوقت المناسب فتجد البلاد فى تلال زينهم وغيرها موردا غنيا بسماد عضوى مفيد وتتخلص فى الوقت نفسه من مباءات تشين العاصمة وتضر بصحة الكثيرين من أبنائها .

م . محمد عبد الكريم